اللقاء العاشر من لقاءات التفسير
في شهر رمضان المبارك من عام 1437هـ

الجزء الثاني عشر: سورة هود
الآيات 50– 60

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد) /http://www.muslimat.net

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا. اللهمَّ آمين.

هذا هو لقاءنا العاشر من لقاءات دروس التفسير في هذا الشهر المبارك، نسأل الله عز وجل أن يزيدنا هذا العلم عملًا ويزيدنا إيمانًا، ويزيدنا قُربًا من ربنّا ويزيد حسناتنا، ونجدها لما نلقاه متواترة قد جزانا الله سبحانه وتعالى على هذه الساعة أجور عظيمة وشكرنا على عنايتنا بدراسة معاني كلامه وهو الذي وفقنا أولًا وهو الممتن بهذه النعمة علينا بأن جعل القرآن نازلًا على نبيه الكريم خاتم الأنبياء، تفضَّل به على هذه الأمة وجعلها الآية الباقية إلى قيام الساعة.

نتدارس بأمر الله اليوم آيات من سورة هود، وفيها نسمع عن قصة هود عليه السلام مع قومه، فهو النبي الكريم الذي أُرسل إلى قومه كما أخبر سبحانه وتعالى، وهود عليه السلام نبي قوم عاد.

قال الله عز وجل: {وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} هود:50 وهذه الآية عطف على مبدأ الكلام عن الرسل فلقد قال سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ} هود:25 فعطف عليه هنا {وَإِلَىٰ عَادٍ} والمقصود يعني وإلى قوم عاد {وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا}، فأرسل الله عز وجل إلى عاد أخاهم هودا، وذُكِر أنه أخ لهم لأنه كان من نسبهم، فإن الناس يُنسَبُون إلى أقوامهم فيُقال: يا أخ العرب ؛ يعني يا عربي.

{وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ} فخاطب قومه بالمقصود، وافتتح دعوته بنداء قومه لاسترعاء أسماعهم؛ إشارة إلى أهمية ما سيُلقي عليهم {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ}.

والقوم كما هو معلوم إنما يُسمون قوما لأن به هو يقوم وبهم هم يقومون، يعني هذا من قوم كذا، يعني يقوم بهم، يعني يستنصر ويسترشد ويعيش، يقوم بهم، وهو منهم فيقوموا بعضهم ببعض، فكأنه يقول ياقوم اعبدوا الله يعني أنا منكم وناصح لكم.

{اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ} فأراد بهذا أ يُشنّع على الشرك الذي وقعوا فيه، فقال لهم اعبدوا الله وحده لا شريك له، دون ما تعبدون من دونه من الآلهة والأوثان.

{مالكم من إله غيره} يعني ليس لكم معبود يستحق العبادة غيره، فأخلصوا له العبادة وأفردوه بالألوهية، وهذا يتضح لما يقول لهم : {إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ} يعني وقوعكم في الشرك وطلبكم لعبادة غير الله ما هو إلا افتراء منكم، فأنتم في هذا أهل فرية مكذبون، تختلقون الباطل لأنه في الحقيقة لا إله إلا الله فأراد أن يوبخهم وينكر عليهم، فقال: ما أنتم إلا كاذبون في ادعاء إلهية غير الله.

وهذا الخبر لما نقر ؤه لا نظن أنه مجرد عن التفكير، فإنه لما يقول لهم: اعبدوا الله مالكم من إله غيره، فإنه يلقي عليهم ماتقبله فطرهم، ويمنعهم من متابعته مجرد عاداتهم وتقاليدهم، فلما يقول لهم هذا القول : {اعبدوا الله مالكم من إله غيره} يُرتّب أمر العبادة على أمر الألوهية، بمعنى أنكم تعلمون أن الله وحده العظيم، وتعلمون أن الله وحده المحسن، فإذا علمتم أنه وحده العظيم وعلمتم أنه وحده المحسن، إذًا هو الذي يستحق أن يكون المحبوب ، فإذا كان العظمة كلها له لا يُشاركه أحد فيها، والإحسان كله منه لا يُشاركه أحد فيه، فإذًا المحبة كلها له لا يستحقها غيره، وإذًا الذل والانكسار والعبودية حقه لا يشاركه أحد فيه.

فهذه الكلمة المختصرة من الآية إنما هي معنى عظيم يفهمه كل من يفهم هذه اللغة التي تحبس وراءها هذه المفاهيم المهمة، فقال لهم {اعبدوا الله} يعني انكسروا واذلوا وتقربوا إليه، لماذا؟ لأن ليس لكم محبوب معظم إلا إياه، فهو وحده الموصوف بالعظمة لا يشاركه أحد وهو وحده الموصوف بالإحسان لا يشاركه أحد، فمالكم من إله غيره ، فكيف تتقربون إلى غيره وتطلبون رضا غيره!

وهؤلاء قومه كما هو معلوم قوم هود عليه السلام كانوا أول من تكلم العربية كما يُقال ، وهم العرب العاربة الذين أُهلكوا، عادًا هؤلاء كانوا ممن عبدوا الأصنام بعد الطوفان، يعني أتى قوم نوح وحصل لهم ما حصل وأتى الطوفان وذهب الشرك وأهله وأتى نوح عليه السلام وأهل التوحيد من ذريته الخلق بعد ذلك، فكانوا على الإيمان، لكن عاد هؤلاء لما قال الله عز وجل فيهم {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ } الفجر:6،7،8 يعني عاد هذه القبيلة كان عندها ماعندها من القوة، وعندها ماعندها من عطايا الله، وقد أخبر الله عز وجل عن حالهم في سورة الأعراف وأخبر هنا في سورة هود وأيضا في سورة المؤمنون، حيث أخبر عن نوح ثم أخبر عنهم {ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ} المؤمنون:31، 32. يُقصد والله أعلم أنهم هم قوم هود، وأيضا ذُكروا في الشعراء وذكروا في فصلت و في الأحقاف وفي الذاريات وفي النجم وفي القمر وفي الحاقة وفي سورة الفجر.

فهؤلاء القوم كانوا عربا جُفاة كافرين عُتاة متمردين في عبادة الأصنام، ونريد أن نقول أنهم أصحاب قوة يتبين الآن لنا كيف كانت آية هود عليه السلام لما قال لهم هذا: {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ} بين لهم أكثر الأمر فقال {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} أعاد فناداهم بكلمة "ياقوم" وأراد أن لا أسألكم عليه أجرا، أي دعوتي لكم ليس المراد منها الانتفاع منكم، وليس المراد منها أن تُعظموني وترفعوني ؛ لأن هذا أكثر ما يُشكل على الناس أنك إذا دعوتهم إلى الحق ظنوا أنك تريد من ذلك أن تعلو عليهم وتصبح لك مكانة وجاه، ومن ثَمّ أموال ومن ثَمّ سُلطة.

هم يفكرون في شأن السلطة قبل أن يفكرون في شأن الهداية! ولذا لما في سورة يونس أخبرنا الله عز وجل عن فرعون وكيف أنه رد على موسى وهارون، كان كل الذي يشغله أو يفسّر به دعوة موسى عليه السلام، أنكم تريدون أن يكون لكم الكبرياء في الأرض، هذا الذي يشغله، فهنا قدّم لنفسه وقال: {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي} هذه الجملة يشبه في كلامه قول نوح عليه السلام فإن نوح عليه السلام أيضا لما دعا قومه قال لهم : {يا قوم لا أسألكم عليه مالا} فأصبحت هذه المسألة مسألة المال والمكانة والجاه من أكثر ما يمنع المقبلين على الحق الذين يسمعون الحق يمنعهم من الإقبال، ما الذي يمنعهم من الإقبال؟

يظنون أن الداعي الذي يدعوهم إلى الإيمان يريد منهم نفعًا دنيويًّا ، ويريد أن ينزلوه في مكانة وجاه، فيمتنعون عن سماع الحق ؛ لأنهم يظنون أن الذي يهديهم إلى الحق إنما يناديهم لمنفعة تخصّه. ولذا في سورة غافر الله عز وجل قال على لسان مؤمن آل فرعون : {يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} غافر:39، فأراد بذلك أني لا أريد منكم أي شيء من متاع الدنيا ما تستحق، إنما الآخرة دار القرار فأنا رحمة بكم أفعل هذا الفعل.

وهنا يصلح أن نقول: أن دعاة الحق دائمًا يرغبون عن دُنية الناس، ويحفظ ون نفسهم من دنياهم، ويبتعدون أن يسألون الناس شيء من أموالهم، أو يكلفونهم ذلك، وأما دعاة الباطل الذين يستعملون الدين لإظهار أنفسهم ولكي يكون لهم حظوة ومكانة، فإنهم يقصدون الأغنياء ويحبون أخذ خواطرهم و يدفعونهم بالتصريح أو التلميح لتعظيمهم، ويطلبون الجاه أو يطلبون المال. فهو لما قال لهم: {لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} هذا إبعاد لصورة نفسه أمامهم أنه يريد منهم مصلحة، وإذا كان يريد منهم مصلحة دنيوية فسدت دعوته ، وفي نفس الوقت النفوس انصرفت عنه، فلا هو صحيح داعي إلى الله حقًّا ولا النفوس تقبله.

وهذا شأن عظيم في مسألة الدعوة، اليوم بين المنافقين الذين يطعنون في الدين وبين المنافقين الذين يتخذون الدين وسيلة للظهور، فتجد الإعلام يضج بمثل هؤلاء الذين في نهاية الأمر يكونون تُجارًا بالدين!

فلذا المرء يُحسن لنفسه ولا يُسيء لدينه، فيحفظ نفسه من أن يتعرض لأموال الناس أو يتعرض لطلب الجاه، ومن صدق في ذلك الله يرفع من يشاء ويرزق من يشاء، وهو سبحانه وتعالى وكيل الخلق، فمن قُسم له أعطاه، ومن قدَّر ألّا يُعطيه فهو مولاه سبحانه وتعالى والله مولى الذين آمنوا وهو يتولى الصالحين.

إذن قال لهم: {لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا } ثم قال: {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي} وهنا إشارة مهمة زيادة تحقيق أنه لا يسألهم على الإرشاد أجرا؛ لأنه يعلم أن الذي خلقه يسوق إليه رزقه، وهذا ما نؤمن به جميعًا، فهو يقول لهم: تعرفون لماذا لا أسألكم عليه أجرا؟ السبب أني أعرف أن رزقي على الله، وأن الرفعة بيد الله، وهو المعزّ المذلّ المقدم المؤخر ، مالك الملك الذي يؤتي ملكه من يشاء. فلما الإنسان المتكلم هذا يُظهر علمه بالأسباب التي هي مصدر كلامه، يكسب كلامه قوة وتحقيق. يقول: أنا لا أسألكم عليه أجرا وأنا أعرف أجري من أين يأتي وأعرف سببه، {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي} ، فالذي فطرني أولا هو الذي يعتني بي ويمدني ويعطيني ويغذيني ويحميني ويحفظني ويرفعني.

والحقيقة هذه الكلمة عظيمة من كلام هود عليه السلام مستوجبة أن أهل الدعوة إلى الدين يجعلونها أمام عينيهم ويؤمنون بأنه سبحانه وتعالى وحده الرازق ووحده الحافظ، فلا تتطلع قلوبهم إلى ما عند الخلق.

نعوذ بالله من التعلق بالخلق في الأرزاق، أو طلب الحظوة عندهم، نستغفره لما حصل في نفوسنا؛ فإن هذه النفس غاية الضعف، سريعة الزيغ، ما يثبتها إلا الذي وهبها الهداية.

يقول لهم: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} وهذا استفهام إنكاري على عدم تعقلهم، كأنه يقول لهم : تأملوا حالتي وما يدلّكم على صدقي ، فإني أطلب منكم أن تُعطوا الحق لله، وليس لي في طلبي هذا أي مصلحة، وليس لي في طلبي هذا أي إرادة ولا انتفاع، لا أريد منكم مالا ولا أريد منكم جاه.

وهذا لابد أن يكون دأب كل من يدعو إلى الله، يقول للناس : هذا طريق الله، هذا دين الله، هذا هو الله، هذا كمال الله، هذا ما يحبه الله، فكونوا مع ربكم كما يرضى عنكم، وهذا شأنكم مع ربكم، وليس لي شأن إلا أن أدلكم الطريق، راغبا أن يكون دلالتكم الطريق أجرا لي وراغبا أن يكون كل سائر على الطريق خطواته مكتوبة لي، من غير أن ينقص من أجر خطواته شيء.

كأنه يقول لهم: كل حالتي تدلكم على الصدق، فلابد أن تعقلوا أني لو كنت أبتغي بدعوتكم إلى الله غير النصيحة لكم، ولو كنت أطلب الحق في الدنيا، لالتمست منكم بعض أغراض الدنيا، ولطلبت منكم الأجر والثواب، لكن لو كنتم تعقلون لعلمتم أن حالي ليس حال من يريد شيئًا من ذلك.

ثم يأتي يرشدهم ماذا يفعلون فيقول : {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} وهذا في مطلع السورة خُوطب به النبي صلى الله عليه وسلم أن يخاطب به قومه وله في هؤلاء الأنبياء سنة، فهذا هود عليه السلام يقول لقومه : {استغفروا} يعني اطلبوا من ربكم المغفرة ، وهو طلب يطلب فيه صاحبه أن لا يؤاخذه ربه بما مضى من معصيته ، بالنسبة لهم هم ما مضى من شركهم، فكأنه يقول : اتركوا عقيدة الشرك واستغفروا ربكم على ما مضى منها.

ومعناها أنه كنّى عن ترك عقيدة الشرك بالاستغفار ؛ لأن الاستغفار ماذا سيلتزم؟ سيلتزم منهم الاعتراف بوجود الخطأ وأنه وقع في ذنب، وليس هناك ذنب قبل إرساله أعظم من ذنب وقعوا فيه أعظم من ذنب الشرك، فمعناها أنه كنّى عن الشرك بالاستغفار.

وهذا الذنب المتقرر في جميع الشرائع أنه أعظم الذنوب فهو معلوم بالضرورة أنه ذنب.

فقال: {يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه} والتوبة -كما هو معلوم-: الإقلاع عن الذنب في المستقل والندم على ماسلف منه، فإذا اجتمعت هي والمغفرة أصبح الاستغفار طلبا لكفارة ما مضى والتوبة عزم على عدم العودة إلى الذنب، فكأن الأمر انتهى إلى أنه يطلب منهم أن يُداوموا على التوحيد ويدفعوا عنهم الشرك، فهو قد قال لهم : {يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه} وهذه "ثم" يسموها الترتيب الرُتبي يعني ترتيب المرتبة، فاستغفروا عما مضى وأعلى من ذلك أن تداوموا على الإقلاع عن الشرك.

{يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا} وهذا كأنه جواب الأمر لاستغفروا { يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا} يريد أنه ينزل سبحانه وتعالى عليهم المطر، فهذا لا يحصل إلا بتقدير الله، فشبهه بإرسال شيء من مكان المرسول إلى المبعوث إليه {يرسل السماء عليكم} يملكها ويرسلها.

والسماء هنا من أسماء المطر ؛ لأن العرب تسمي الشيء باسم مصدره ، كما في الحديث : "خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على إثر سماء"، يعني على إثر مطر، وهذه تسمية الشيء بمصدره.

{يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا} مدرارًا: هذه صيغة مبالغة من الدرور يعني الصبّ، فالمقصود أنه يرسل السماء عليكم بمطر غزير، فجعل جزاء الاستغفار والتوبة إمدادهم بالمطر؛ لأن ذلك من أعظم النعم؛ لأن قوم عاد قوم زروع وكروم وحصاد، وكانوا يجعلون السدّ لخزن الماء. والذي يظهر أن الله عز وجل قد أمسك عنهم المطر سنين، فتناقص رزقهم وهذا من باب التهديد على أن المستحق للعبادة هو الذي يُرسل السماء عليكم مدرارًا، فإذا أشركتم معه أحد كنتم تستحقون أن يُحبس عنكم هذا، فمعناها أن يرسل السماء، هذا فيه وعد وفي نفس الوقت فيه تنبيه أن الله غضب عليكم، ولذلك حبس عنكم.

وهذه الديار لمن يعرفها، هي في جنوب جزيرة العرب ديارهم تمتد من حضرموت إلى الأحقاف، بها مدن وبساتين وحلل، وهم القوم الذين أُعجبوا بقوتهم فقالوا : {من أشد منا قوة} فلذلك جعل الله لهم جزاء على ترك الشرك زيادة قوتهم، بكثرة العدد وصحة الأجسام وسعة الأرزاق، فيكونون هم أقوياء والناس يحتاجونهم . وهذا ظاهر لما قال لهم {وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ} يعني سيجازيكم إذا وحدتم، سيجازيكم ويعطيكم، فمعناها هذا وعد بصلاح الحال في الدنيا إذا رضي عنهم.

وعطف عليه {وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} يعني يحذرهم من أن يرجعوا إلى الشرك، فلا تنصرفوا ولا تعرضوا، فإنكم إن أعرضتم اتصفتم بالإجرام؛ لأن حقيقة الإجرام هو الإعراض عن قبول أمر الله.

إذن بهذا فهمنا أن هود عليه السلام أمر قومه أن يؤمنوا لما قال لهم : {استغفروا ربكم}، وأمرهم أيضًا أن يستمروا على الإيمان لما قال لهم: {ثم توبوا إليه} ، ثم نبههم أنهم إذا حصل منهم الإيمان أتتكم عطايا الله وإن لم يحصل منكم الإيمان حُبس عنكم {يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ}.

ثم في نهاية كلامه هنا نبههم أن لا يُدبروا عن ما دعاهم إليه من توحيد الله والبراءة من الأوثان فيُصبحوا مجرمين بإعراضهم ، فإنّ أعظم الجُرم الإعراض عن التوحيد والبعد عن دين الله، هذا أعظم الجرم الذي يمكن أن يقترفه أحد.

ردّهم: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ} يُجيبون على دعوته، ويريدون منه البينة {ما جئتنا ببينة} وهذا بهتان منهم ، وه نا موضوع النقاش.

جاء في القرآن كما سيأتي في الآيات : {وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم} سيأتي هنا في سورة هود، لكن لم يُذكر لنا آية معينة لهود عليه السلام، فحصل اختلاف هل كانت آيته ما وعدهم من وفرة الأرزاق والأولاد واضطراب الخصب، وأن لا تأتيهم نكبة ولا مصيبة، وهذه تعتبر خارقة بالنسبة للأمم لأنه لابد من مصائب الدنيا.

أم ما سنراه من أنه تعرض لهم على ضعفه وقوتهم ولم يكن خائفًا بل كان متوكّلًا، فعقيدتنا الإجمال في المسألة واعتقاد حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي ورد في البخاري: ((**ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر**))[1] هذه عقيدتنا أنه قد أُعطي آية يؤمن عليها البشر.

لكن سنرجع لنفس الأمر **{ما جئتنا ببينة}** يقصدون آية تكون مطابقة لمقترحاتهم، وجعلوا ذلك علّة لتصميمهم على عبادة الأوثان، فقالوا: **{وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِك}**.

إذن هذه عقيدتنا في هذه المسألة العظيمة وهي آية هود عليه السلام، وهي أنه لما قالوا : {ما جئتنا ببينة } إنما أرادوا بينة طِبقًا لمقترحاتهم، وجعلوا ذلك علة لعدم اقتناعهم قالوا: **{وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}** يعني لا نتركها تركًا صابرًا عن أن من مجرد أن قلت لنا، فكلامك لا يكفينا، كلامك ليس علة لتركهم آلهتهم، يرون ذلك أنهم لا يتركون آلهتهم لمجرد الكلام.

تأتي هذه الآية الكريمة : **{إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ}** كأنها جواب على من يقول: إذا اعتبرتم هذا الذي يق وله ليس وحيا من عند الله ولم يُرسله الله ، ماذا تعتبرونه ماذا تعدونه؟ فكأنهم يقولون: نقول إنك ممسوس من بعض آلهتنا ! جعلوا ما أتى به هود عليه السلام إنما هو من فِعْل بعض الآلهة ؛ تهديدًا للناس لأنه لو تصدى له جميع الآلهة لدكّوه دكًّا، فهم يقولون : {**اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا** } يعني أصابك من سوء، فهم يقولون أن آلهتهم أصابته بمسّ من قبل أن يقوم بدعوة رب عبادتهم، يعني بسبب آخر ، وهذا كلام ملفّق! آخرتها يريدون أن يقولوا أنه مجنون، وأن الذي يقوله جنون وأن جنونه كان بسبب مسّ من الآلهة، وهم بذلك أغبياء! لأن الآلهة تصيب أحد بالجنون فتجعله سببًا في إثارة ثائرة الناس عليه!

لكن دائما أدلة أهل الباطل مُنقلبة عليهم، لما قالوا هذا الأمر قال : **{إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}** لما رفضوا ما دعاهم إليه وجحدوا الآيات وصم موا على ملازمة عبادة الأصنام، وجعلوا دعوته نوع من أنواع تصرف الآلهة فيه، فأجابهم بأنه يشهد بحق الله وأنه أبلغهم وأنهم كابروا وجحدوا.

وهو صلى الله عليه وسلم أشهدهم أنه بريء مما يشركون، فكأنه يقول: أنا لا أخاف آلهتكم ، بل أنا بريء منها وأُنكر قدرتها، ولذا أتى في الآية التي بعدها فقال: **{فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ}** فلما تبرأ من جميع المعبودات من دون الله وهم قالوا أن الذي أصابك

[1] صحيح البخاري.

إنما هو مسّ منها، فقال لهم: كيدوني أنتم وهم، وقال لهم هم لقومه ولم يجعل الخطاب للآلهة لأنها لا تعقل ولا تسمع، فأمر قومه أن يكيدوه، ويدخل ضمنهم أصنامهم؛ لأنهم يعتقدونها، يعني أنتم وأصنامكم كيدوني وأنا أتحداكم أن تستطيعون مني شيئًا.

ولذا في المرسلات: **{فإن كان لكم كيد فكيدون}** وهنا اعتبر بعض أهل العلم أن هذه من أعظم آيات هود عليه السلام أنه قال لهم: كيدوني جميعا ولا تتأخروا، تحداهم أن يكيدوه وارتقى إلى مرتبة التعجيز والاحتقار، كيف ارتقى لذلك؟ قال لهم لا تنتظروا، لا تتأخروا في كيدكم، وهو بهذا يستخف بأصنامهم، ويستخف أيضا بقومهم، فهم الذين يرون نفسهم أقوى الخلق.

فكان هذا عند بعض أهل العلم آية هود عليه السلام ؛ فإنه كان متوكلا على الله مُستيقنًا أنهم لا يمسّوه، يقول : **{إني توكلت على الله ربي وربكم}**، **{فكيدوني}** كأنه يقول أنا واثق بعجزكم فلا يستطيعون ولا تستطيعوني أنتم لأني متوكل على الله.

فقال: **{إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا}** آخذ يعني ممسك، بناصيتها ، الناصية هي ما انسدل على الجبهة من شعر الرأس، وآخذ بناصيتها، يعني متمكّن منها.

وهذا لكل دابة، كل من دبَّ على الأرض ، نوع الإنسان وغيره، فالله هو المالك القاهر لجميع مايدبّ على الأرض، فإ ذا كان مالك للكل فإنه لا يفوته أحد منهم، وهو قاهر لا يعجزه أحد.

{مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} ، وهذا تعليل **{إني توكلت على الله}** أي توكلت عليه لأنه هو أهل للتوكل، وهو الذي يُجري الأفعال على طريق العدل، وهو الذي يؤيد رسله، وهو الذي لا يخذل عبيده، وهو الذي إن توكل عليه عبد كفاه، وإن استنصره نصره، ربي على طريق الحق، يجازي المحسن على إحسانه والمسيء بإساءته لا يظلم أحد.

وهذا المعنى العظيم **{إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** معنى يحتاج إلى كثير من التفكير، فإن الفطرة السوية فيها من المستحسنات والمستقبحات ما فُطِرت عليه وخُلقت، فإذا تُركت وشأنها دلّت على ربها فوجدته على صراط مستقيم.

على كل حال هذه الآية كما تبيّن لنا أنها دليل على قوة توكّل هود عليه السلام، وعلى قوة ثقته بربه ، فإنه يعلم يقينًا أنّ هذه المعبودات من دون الله لا تنفع ولا تضر ولا تُوالى ولا تُعادى، ولا تنفع من والاها ولا تضرّ من عاداها، وأنّ الملك كله بيد الله وأن التصرف كله بيد الله، وأن القهر والسلطان إنما هو لله، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

فلما تيقّن وتيقّنوا ، تيقنوا بأنه ليس خائف منهم ، وتيقّن بإيصال الخبر إليهم قال الله عز وجل: {فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ} بمعنى أنكم إن أعرضتم عن هذا الذي جئتكم به فأنا قد أقمت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله، و لا تظنوا أن الله بحاجة إليكم فإن الله يهلككم ويستخلف غيركم، فإن ربي غني عنكم ، إن أعرضتم أنتم يبدّل خيرا منكم ويستخلف ربي قومًا غيركم وتضرونه شيئا، فإن العابد إن عبد نفع نفسه، وإن عصى ما ضرّ إلى نفسه، فالله يُزيلكم ويستخلفكم بقوم آخرين لا يتولون عن رسلهم ولا تضروه شيئًا بتولّيكم هذا.

وهذا الأمر مما نعتقده في دين الله، فإنّ كل العباد لم يبلغوا نفع الله فينفعوه، ولم يبلغوا ضرّه فيضرّوه.

{إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} وهذا تعليل لجملة {ولا تضرّوه شيئا} فهو سبحانه وتعالى حفيظ حافظ، وهو الذي يضع المحفوظ بحيث لا يناله أحد فيضعه في حماه ويمنع عنه الشر {إن ربي على كل شيء حفيظ} وهو حفيظ لأقوال عباده، وأفعالهم ويجازيهم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

يقول الله عز وجل: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا} بمعنى اقترب مجيء الإنجاء لهود عليه السلام و إحلال العذاب لقومه، {نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} من العذاب الذي حلّ بالقوم وهذا برحمة منا، فرحمة الله سبب لنجاتهم، وهو فضله الذي أعطاه المؤمنين وأنّ الله لو لم يرحمهم لكانوا مع أولئك الكافرين.

فإن الاستئصال يكون نقمة للكافرين وبلوى على المؤمنين ، يعني قد يحصل لهم، لكن هنا رحمهم الله فلم يدخلوا في الاستئصال {وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} يعني لما جاء أمر الله عز وجل نجاهم سبحانه وتعالى من عذاب شديد، والمقصود هنا من عذاب الآخرة، يعني العذاب الغليظ معناه أنه اجتمع لهم أمرين: نجوا من العقوبة، ونجوا من العذاب الغليظ الذي يكون في الآخرة.

فنجاهم الله من عذاب الدنيا برحمة منه ونجا هم من عذاب غليظ في الآخرة أيضا، في مقابل قومه ماذا حصل لهم؟ قال الله عز وجل: {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} فهنا إشارة إلى أن هذه الأخبار التي سمعتموها عن عاد إنما هو بسبب أنهم جحدوا وأجرموا. وجحدوا بمعنى أنكروا إنكارا شديدا، وهذا يدلّ على أنّ هود أتاهم بآيات فأنكروا دلالتها، فعاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله.

ويأتي هنا {عصوا رسله} الرسل هنا جمع وهم لم يعصوا إلا هودا، لكن في الحقيقة من عصى رسول واحد كأنه عصى جنس الرسل لأن تكذيبهم لهود لم يكن خاص به بشخصه، إنما هذا عام في إنكار أن الله يُرسل رسله، فهم قالوا {مانحن بتاركي آلهتنا عن قولك}

مع أن كل الرسل هم يعرفون نوح وقصته أمروا بترك عبادة الأصنام، إذن هم {جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد}، وهذا معناه أنه كان لهم ساسة ورؤساء يتبعون أمرهم ويطيعونهم، فهو يتبع في هذه الدنيا لعنة وبقي هذا ما يقال عنهم. ويوم القيامة كما هو معلوم يوم القيامة سيكون عليهم العذاب الشديد **{أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}** وهذا تهويلا بما فعلوا.

والبعد المقصود به أنهم ابتعدوا عن رحمة الله و أنهم مذمومين بإعراضهم عن طاعة الرسول، وهذا تعريض للمشركين من العرب، فالعرب كانوا يعرفون عاد ويعرفون قصتهم ويعرفون قوتهم ويعرفون هلاكهم، فهؤلاء قد أُتبعوا في الدنيا لعنة وكانت هذه اللعنة معروفة يتناقلها الناس عنهم، ويوم القيامة سيكون سخط الله. وقد أبعدهم الله عن كل خير؛ لكفرهم وتكذيبهم.

فنعوذ بالله أن نكون ممن جحد نعمة الله أنكر فضل الله، ونسأله أن نكون ممن آمن به حق الإيمان، وتوكل عليه حق التوكل وشهد مع هود عليه السلام أنه أتاهم بالبينة ودلّهم طريق رب العالمين وأنهم أنكروا ذلك وأنهم خابوا وخسروا بسبب إعراضهم.

نسأل الله عز وجل أن نكون ممن شهد مع نبينا ومع هود عليه السلام على قومه ونكون الشهداء لله في الأرض. اللهم آمين.

سبحان اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.